وأشباه ذلك ؛ وانما النظر هنا فيما وكل تحقيقه الى المكلف .

فقد ظهر معنى المسألة وان الاحاديث لم تتعرض لاقتناص الاحكام الشرعية من طمأنينة النفس أو ميل القلب كما أورده السائل المستشكل ، وهو تحقيق بالغ . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الحرب المدنية الكبرى

بلغ العالم المدني في العلوم والصناعات وشؤون الاجتماع شأوا لم تعرف له الارض نظيرا ، فرماها بقاصمة من الحرب المدنية لم ترلها نظيرا ، فهذه الحرب تشغل اليوم عقول أعرق الامم في العلم والمدنية وجميع قواهم وجوارحهم وما كسبته في الايام الخالية من علم ومال ، وما أنشأته من الآلات وعُدد القتال ، في انتقام عدة أمم ودول من أمم ودول أخرى ، وكل دولة مقاتلة تتوسل الى من بقي على الحياد من الدول لتجذبها اليها وتجعلها من أحزابها ، فلو نال كل فريق من المقاتلين مايتمناه من مساعدة غيره له لاحترقت الأرض كلها بنار هذه الحرب ، وكان البشر كلهم حولها كالفراش يتهافتون فيها

لو فكر كل امرئ من الناس بكنه هذه الحرب ونكباتها وشرورها وما تصبه في كل ساعة بل في كل دقيقة بل في كل ثانية من أصوات العذاب وصواعق الثكال على الألوف من اخوانه البشر ، وما يخسره العالم بفقد من تصعقهم من العلماء والحكماء والصناع والزراع ، وأرباب البيوت الذين خلفوا وراءهم نساءً وأطفالا لا عائل لهم من دونهم — لو فكر كل امرئ في ذلك وأعطاه حقه من التصور والتدبر لاضطرب قلبه ، وحار لبه ، وسالت عبرته ، وعظمت عبرته ، ولكن

شغل كل امرئ ما أصابه أو يتوقع ان يصيبه من شر هذه الحرب عما أصاب غيره وقلما يوجد أحد في الأرض آمن من مصائبها ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه

إن أبعد الناس عن مواقع القتال وأقربهم الى الامن على أنفسهم من نيران مدافعها و بنادقها وأسنة حرابها ، لهم فيها شواغل أخرى بما نقصته من مكاسبهم ، وما قطعته من موارد أرزاقهم ، فقد اضطربت المعاملات المالية في العالم كله منذ بدأت ، لان هذه الدول التي أشعلت نارها هي القائمة بمعظم تجارة العالم ، والصانعة لاكثر ماعونه ولباسه وسائر أدوات عمله ، وما هذا الشاغل عند الاكثرين الا دون ما لكل منهم من الضلع والميل الى أحد الفريقين المتحاربين على الآخر ، فترى أمثال هؤلاء أكثر تفكيرا في عاقبة الاحلاف المحاربة من التفكير في عاقبة أمر أنفسهم في معاشهم وموارد رزقهم ورزق من يعولونه ، لهوى لهم في ذلك يرضونه ، أو نفع من ورائه يرجونه

هذا وان الناس يزنون أخبار الحرب بموازين أهوائهم ، ويحكمون في عواقبها بأمانيهم لا بآرائهم ، فحكمهم هذا لايتوقف على معرفة أخبارها الصادقة ، ولا على كنه قوات الدول المحتربة . على ان من هذه القوات ماهو معلوم بالتواتر أو الاستفاضة لا يماري فيه أحد من عوام الناس — دع خواصهم — ومنه ان دولة انكلترة أقوى دول الارض في البحر ، وان دولة ألمانية أقواهن في البر ، وثانيتهن في البحر ، واختلف الناس في المفاضلة بين الدول في الاساطيل الجوية ، فذهبت الصحف عندنا الى أن فرنسة صاحبة السبق في هذا المضمار وان لها القدح المعلى فيه ، ثم ظهر أن ألمانية هي المبرزة فيه ، كما كنا نظن وفاقا لكثير من الناس . بل المعلوم بالاجمال عند جماهير الناس في الغرب وأكثر المتعلمين في الشرق أن ألمانية أشد الدول استعدادا للحرب واتقانا لنظامها وعُددها وكراعها ، وانه لولا أن انكلترة تكثرها في أساطيل البحر . لما لها في ذلك من السبق ، لسهل عليها ان تسود الامم كلها بقوتها

هذا وان جميع الدول الاوربية متقاربة في الاستعداد للقتال ، وقلما تسبق واحدة الى اختراع شيء أو احداث عدة أو انشاء حصن وتستطيع إخفاءه زمنا طويلا عن غيرها ، فان لكل منهن عيونا احد ابصارا من زرقاء اليمامة ، وأشد استراقا للسمع من الشياطين ، ولكل من فنون العلم ودور الصناعات مايمكنه من مباراة الآخرين في الاستعداد الذي يحتاج اليه لحماية حقيقته ، وحفظ مكانته ، ولم يكد يبقى للسابقين من مزية على اللاحقين في شيء بل صار الاول آخرا وعاد البدء ثنيانا في كثير من الشؤون ، حتى خيف بعد تلك المساواة أو المقاربة في العلم والعمل ان يستعلي شعب واحد على شعوب أوربة كلها فيسود بذلك العالم كله

الفرنسيس اذكى الاوربيين أذهانا ، وأشدهم إقداما ، وأسبقهم الى المحامد يدا ولسانا ، والانكليز أرجح الشعوب أحلاما ، وأشدهم حصافة وإحكاما ، وأمثلهم سياسة وأعدلهم أحكاما . فلهذا سبق هذان الشعبان جميع الشعوب الى استعمار الممالك ، والاستمتاع بثروة الامم في المغارب والمشارق ، وقد تنافسا وتناظرا ، وتنازلا وتصاولا ، فكان الفلج والظفر لأهل الأناة والروية ، على أهل الذكاء والاريحية ، وبذلك كان للانكليز المقام الأعلى في العالم منذ عدة أجيال ، ويليهم الفرنسيس في الثروة والاستعمار

ثم نبغ الألمان وبرعوا في جميع العلوم والاعمال والصناعات والتجارة حتى بذّوا الفرنسيس والانكليز في ذلك فصار النماء النسبي في ثروتهم اعلى من مثله في ثروة أولئك وخيف ان يصير اللاحق سابقا ، والثنيان بدءا . واشتدت المناظرة ، حتى أفضت الى هذه الحرب الحافرة

وأما سائر الدول والامم المحاربة مع هؤلاء فهي انما حاربت بالتبع لها ، واقواهن الروسية ، فهي شديدة الاسر ، راسخة الأصل ، ناميـة الفرع ، غزيرة العـدد ، وافرة المدد ، ولو كان شعبها كالألمان في العلوم والفنون ، لسادت الناس اجمعين ، ولكنها دون النمسة وإيطالية في العلم والصناعة ، وفوق الدولة العثمانية التي قنعت من المدنية الاوربية بتقليد الاوربيين في ظواهر النظام والزي وأساليب المعيشة ،

دون العلوم والفنون التي ترقي الصناعة والزراعة والتجارة ، وتنمي الثروة وتغنيها عن الاجانب فيما تحتاج اليه من أسباب القوة ، وأقله معامل السلاح والذخيرة

ولولا ان الامة العثمانية حربية بالطبع ، ولولا موقع عاصمتها الذي تنافسَ فيه ويحاسدَ عليه أقوى دول الارض ، فلم يسمح به بعضهن لبعض ، ولولا مكانتها من نفوس الشعوب الاسلامية ، التي كانت توادها لاجله الدولة البريطانية — لولا ذلك كله لاسرعت الدول الكبرى في الاجهاز عليها ، بدلا من هذه المطاولة بنقصها من أطرافها ، والاكتفاء بفتح النفوذ الاقتصادي والسياسي في أحشائها

ولا يسع الباحث ان يغفل عن سائر الدول الصغرى التي اشتعلت نار الحرب في بلادها أولا ، وهي الصرب والجبل الاسود وبلجيكة ، فجيشهن لا تفضله جيوش الدول الكبرى في الشجاعة ، والبلجيكيون من أرقى الشعوب في العلم والصناعة والتجارة

فجملة القول في المجموعين المتقاتلين أن انكلترة وفرنسة وروسية وبلجيكة والصرب والجبل الاسود أكثر من ألمانية والنمسة والعثمانية رجالا ومالا وأساطيل بحرية وهوائية ، ولكن ألمانية وحدها أعلى منهن استعدادا ونظاما ، ولولا الاسطول الانكليزي لرجحت على الجميع رجحانا ظاهرا ، بل لا مكنها أن تحارب أوربة كلها وتنتصر عليها

بيد أن هذا السبق في الاستعداد ، ليس مما ينتظم في سلك الخوارق والآيات ، بل يمكن لدول الاحلاف أن يلحقوها به ، اذا عجزت في أول العهد عن بطشة فاصلة في فرنسة . أما اذا وقف مدها عند تدويخ بلجيكة والاستيلاء عليها وعلى بضع ولايات من شمال فرنسة وجانب من بولاندة الروسية ، فما بعد المدّ الا الجزر ، فاذا أمكن للحلفاء أن يزيدوا عدد جندهم ويمدوه بما لم تستطع هي مثله عاد لهم الرجحان عليها في البر ، كما سبق لهم الرجحان عليها من قبل في البحر

فمحل الرجاء للحلفاء انما هو التغلب بالكثرة بقاعدة قول الشاعر العربي :

ولست بالاكثر منهم حصى وانما العزة للكاثر

أما هذا المدد الذي يكون به الرجحان البري فلا يرجى الا من قبل بريطانية

العظمى لأن الفرنسيس قد بذلوا كل ما في وسعهم ، والروس — وان كانوا اكثر عددا — لا يجدون من الذخائر والسلاح ولا من الضباط ما يمكنهم من تجنيد العدد الذي تسمح لهم به كثرتهم ، فالانكليز وحدهم هم القادرون على مضاعفة جنودهم ، وعلى ايجاد ما يحتاجون اليه من السلاح والذخيرة لكثرة معاملهم وعمالهم ومالهم ، وليس عندهم جندية اجبارية تستغرق العمال ، وتوقف حركة الاعمال ، وانما يعز عليهم التعجيل بايجاد ضباط اكفاء لجيش كبير يجددون تنظيمه تجديدا ، ولكن الانكليز أهل صبر وأناة ، فما لا يدركونه في سنة يرضون بأن يدركوه في سنين ، وتاريخهم مرآة أخلاقهم في ذلك . وقد قدر لورد كتشنر ناظر الحربية القائم بتجهيز الجيوش الانكليزية مدة هذه الحرب بثلاث سنين

بين لنا ما تقدم ما يراه كل الواقفين على الحقائق من أن هذه الحرب ليست الا المظهر الاجلى للتنازع على السيادة والنفوذ والاستعلاء في الارض بين الانكليز وأبناء عمهم الألمان ، وسائر الدول تبع لهما في عللها ومعلولاتها ، ومقدماتها ونتيجتها

دع البحث في المقدمات فقد انتهى أمرها ، وسيحكم التاريخ حكمه العادل فيها ، وأما النتيجة فهي ان السيادة العليا في الغرب والشرق ستكون لانكلترة أو لالمانية لامحالة ، ويكون احلافهما تبعا لهما . فتكون لانكلترة اذا فازت هي وأحلافها بالنصر التام ، لانهم لن ينالوا ذلك الا بها ، ولا تنتهي الحرب الا وقد انتهكت قواهن من دونها ، واستحدثت هي من القوة فوق ما كان لها اذ شرعت بتأليف قوة برية لم يكن لها مثلها في وقت من الاوقات ، كما انها تزيد الاسطول قوة على قوة . وحينئذ تكون أعظم الدول ربحا وأقلهن خسارة ، واذا كان من بواكر هذا الربح مصر وقبرص والبصرة ومعظم مستعمرات ألمانية في أفريقية أو جميعها كما هو المنتظر فكيف تكون أواخره ؟

واما اذا كان النصر التام لألمانية وأحلافها فقد طالما لهجت الجرائد الانكليزية والفرنسية وغيرها بأن ألمانية حينئذ تجعل أوربة كلها تحت سيطرتها ، وتنتزع منها جميع مستعمراتها ، وأنها بذلك تسود العالم كله ، ولعلنا نعود الى تفصيل القول في نتيجة الحرب على كل تقدير ، بقدر ما تسمح به المراقبة الرسمية على الصحف ، ونلم في ذلك بأماني الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ؟

﴿ إلغاء الامتيازات الاجنبية والحذر من الفتن الاهلية ﴾

أخذت الدولة العلية تهيئ جيشها وتستعد للقتال عقب اعلان الحرب في أوربة، وتضافرت الروايات والآراء على انها تحارب مع المانية والنمسة ، وقد كان مقدمات ذلك إلغاؤها للامتيازات الاجنبية ، وهي قد آذنت الدول بذلك في شهر سبتمبر، وقد خشي كثير من نصارى السوريين أن يفضي إلغاء امتيازات الدول الى فتن أهلية في سورية، فكيف اذا حاربت الدولة روسية وفرنسة وانكلترة الحامية للنصارى في بلاد الدولة، وقد تحدث اخواننا السوريون هنا بذلك، وكثر خوض الجرائد السورية الامريكية في المسألة واشتد تشاؤمها ونقلت عن سفير الدولة في واشنطون كلاما يؤيد هذا التشاؤم ، حتى انه ليخيل لمن قرأ ما كتبت ، أن الفتنة وقعت أو كربت

أما نحن فاننا نعلم ان هداية الاسلام التي حفظت لغير المسلمين حريتهم في القرون التي كانت دول الاسلام فيها أقوى دول الارض لا تزال ذات السلطان الأعلى على نفوس المسلمين ، فاذا كانت السياسة قد غلبتها او استخدمتها في بعض الاوقات في العدوان الذي تنهى عنه فلن تستطيع ان تنال ذلك منها في كل وقت، بل نعلم فوق ذلك ان مسلمي سورية صاروا يعلمون ان مصلحتهم القومية والوطنية لن تقوم الا بتعاونهم مع سائر أبناء وطنهم المشاركين لهم في تلك المصلحة — فالنتيجة اذا ان دين المسلمين ودنياهم متفقان على نهيهم عن الاعتداء ، وحثهم على التعاون والاتفاق ، وقد كان للنهضة العربية الحديثة أعظم التأثير في ذلك .

وانا على ثقتنا بما بينا قد كتبنا مكتوبات خاصة الى من نثق بحسن سعيهم في البلاد السورية نذكرهم فيها بما يجب عليهم العناية به الآن ، ونشرنا في جريدة الاهرام اليومية التي صدرت في ٦ ذي القعدة الماضي (و ٢٦ سبتمبر سنة ٩١٤) خطابا عاما في ذلك نثبته هنا ليكون أثرا تاريخيا ، اذ تأخر صدور هذا الجزء من المنار ومنعت الصحف المصرية من دخول البلاد العثمانية وهذا نصه :